المجلة السياسية والدولية

اسم المقال: مكانة العراق في المشروع القومي العربي
اسم الكاتب: د. ياسين سعد محمد
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2097
تاريخ الاسترداد: 2025/05/11 19:57 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من الصفحة الخاصة بالمجلة السياسية والدولية على موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مكانة العراق في المشروع القومي العربي

الدكتور

ياسين سعد محمد(*)

مقدمة

ابتداء لا بد من التنويه ، إننا عندما نبحث في المشروع القومي العربي، فنحن لا نتحدث هنا عن المشروع الكلي الذي يبغي تحقيق النهضة في المجالات العامة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فلا يعنينا هنا المشروع النهضوي في مقاربته الأوربية (الأنوار)، بل جل ما نعنيه هو الجانب السياسي حصرا المتمثل بمشروع إقامة الدولة العربية.

أثار المشروع القومي العربي خلال مسيرته، تجليات . وإشكالات ومناقشات فكرية وسياسية بدأت ولم تنته، والعراق أنتج جزءا من هذه التجليات وشهد العديد من الإفرازات وتفاعل مع الإشكالات فاعلا ومنفعلا إيجابا وسلبا ومن خلال هذه المسيرة كان للعراق مكانة في المشروع القومي العربي منذ نشأته وحتى الوقت الراهن.

وبحثنا هذا يحاول تقصي مكانة العراق في المشروع القومي العربي، والسؤال الأساس الذي يحاول البحث الإجابة عنه هو: ما دور العراق في المشروع القومي العربي؟ وما هي الرؤية العربية لهذا الدور .

اعتمد الباحث في محاولة الإجابة عن السؤال المركزي .على المنهج التحليلي النقدي من خلال عرض تاريخي تجاوز السرد والإطالة في ترتيب الوقائع، واكتفى بالتركيز على ما هو مفيد من وجهة نظره في الوصول إلى هدف البحث متجنبا الخوض التفصيلي الذي يتطلب عمل يتجاوز حجم وغايات البحث وأسئلته هذا من جانب، ومن جانب أخر تركز العمل على المشروع القومي في إلاطار العملي دون إطاره الفكري.

توزع البحث على محاور عدة، الأول عبارة عن مدخل مفاهيمي يهدف إلى تحديد المفاهيم التي يتناولها الباحث، والثاني يتناول بدايات المشروع القومي العربي بشكل عام، والثالث يركز على ظهور المشروع القومي العربي في العرا والرابع يتحدث عن المشروع القومي العربي في العراق والتفاعل مع المحيط العربي، والخامس يحلل المشروع القومي العربي بعد حرب حزيران، والسادس والأخير يتعرض للمشروع القومي العربي بعد احتلال الكويت.

وبعد سنحاول في بحثنا تقصي مسارات الأحداث في المنطقة عبر حياة المشروع القومي العربي وتحولاته عبر الزم وبتفاعله مع المتغيرات الكبيرة، لمحاولة تبين مدى أهمية العراق، أو مكانته في المشروع القومي العربي، ولدى مفكري وساسة هذا المشروع. مع التأكيد إن هذا البحث هو بحث أولي استكشافي لضخامة حجم الموضوع ، وكونه لم يسبق العمل عليه بشكل وافي، أي عدم وجود أبحاث تنظر إلى العراق من زاوية رؤية المشروع لمكانة العراق في المشروع مع كثرة الأبحاث التي تتناول نظرة العراقيين إلى هذا المشروع. أو بعبارة أخرى وجود وضوح للنظرة من الجزء إلى الكل دون النظرة من الكل إلى الجزء.

أولا: مدخل مفاهيمي

يشكل تحديد بدايات المشروع القومي العربي ضرورة أولية لملاحظة تطور هذا المشروع، وبالتالي فهم أهمية العراق بالنسبة لهذا المشروع . وقبل هذا لابد من الدخول في تحديد المفاهيم الإجرائية ليبقى تواصل المتلقي محددا برؤية الباحث المفاهيمية ، دون أن يكون له مساحة للتأويل عما يود الباحث بحثه وتوضيحه ، وبالتأكيد دون أن يعني ذلك مصادرة حق المتلقي في نقد وتشريح النص ، بل ربما يتجه ذلك التحديد في إعطاء مساحة علمية للنقد والرد بعيدا عن إشكالات سوء الفهم.

(*)كلية العلوم السياسية / جامعة النهرين.

إن التحديد الإجرائي للمفاهيم يتطلب تفكيكا و فرزا لعدة مفاهيم قد تبدوا للوهلة الأولى ذات دلالة مترادفة لغة واصطلاحا وهي: القومية (كعرق/أثنية)، والقومية (كفكر) ، والقومية (كمشروع). فإذا كانت القومية كفكر تبني على الدور العرقي عقائد أيدلوجية، وتصورات، وحتى خرافات، كما في أي فكر قومي يخلط بين الوقائع العلمية المؤكدة والحكايا والقصص والمرويات المتداولة والموروثة ، كتوظيف للرؤية السياسية التي تغفل في اغلب الأحيان الأسس العلمية والواقعية بهدف تجاوز الإشكالات للوصول إلى أقصى الممكن ، وهو ما بدا وكأن الغاية الفضلى يمكن أن تبرر الادعاءات الوهمية التي بدورها تسهل للقيادات تعبئة الجماهير وتسييرها .وعلى أساس ذلك تكون القومية كمشروع قد استثمرت كل ذلك وسخرته لخدمتها وهو ما يجعل تلك المفاهيم متداخلة وبحاجة للتميز وفك الارتباط .

القومية (كعرق/ اثنية)، مفهوم يشير إلى الاشتراك أو الادعاء بالاشتراك في نسب ومنحدر سلالي واحد ، أي الاشتراك بجد واحد تنحدر كافة الأنساق منه ، وهو ما يعبر عنه بوحدة الدم فعلا أو إحساسا .أما القومية (كفكر)، فنقصد بها الصياغات العقائدية المنظمة لتحديد الروابط والسمات المشتركة لجماعة إنسانية ما .

لم يشكل الفكر القومي عند العرب حتى نهاية القرن التاسع عشر نظاما أو عقيدة تم تركيبها أو استخدامها في حالة الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي بل ظل هذا الفكر وبخاصة عند حامليه من رجالات عصر النهضة أقرب إلى يكون رؤى ومواقف ولكونها كانت في معظمها ايضا جزءا من رؤى فكرية استمدت اصلا من الفكر الغربي بفعل الاحتكاك الذي زاد في ذلك القرن وبخاصة في النصف الثاني منه .

بينما القومية كمشروع فنقصد به مزج الأطروحات العرقية والصياغات الفكرية في خدمة الفعل السياسي وأهدافه ، أي خلق مجالات نفسية واجتماعية لتحقيق أواصر روحية بالدرجة الأولى تسهم في خلق بؤرة جذب يتحلق حولها اكبر عدد ممكن من الأفراد وتنظيمهم في اطر سياسية حزبية أو داعمة لأطروحاته السياسية هدفها تأسيس دولة عربية .

ثانيا:- بدايات المشروع القومي العربي او المشروع النهضوي

تشكلت بدايات المشروع القومي العربي في أواخر القرن التاسع عشر بشكل فكر جنيني متأثرا بالفكر القومي التركي الطوراني الذي اخذ في الظهور والتصاعد في الدولة العثمانية نتيجة الاحتكاك بالفكر القومي الأوربي، وقد تشكلت فيما بعد نزعته التتريكية الشوفينية على يد جماعة الاتحاد والترقي . إن بروز الفكر القومي بشكل عام في الدولة العثمانية والتصاعد في وتائر نزعة التتريك في مرحلة لاحقة، قد خلق حالة من رد الفعل المعاكس أو التأمل في الذات القومية العربية واكتشافها ،والتي كانت قبل بروز نزعة التتريك، مندمجة في شكلها العام بالرابطة الإسلامية للخلافة العثمانية ، وتمحورت فكرة القومية العربية في طروحات عدة ، منها الرابطة العربية الوطن العربي التي تجمع العرب باختلاف دياناتهم ومثلها ناصيف اليازجي وإبراهيم اليازجي وبطرس البستاني ، وفكرة رفض الخلافة العثمانية وإعادتها إلى العرب ومثلها عبد الرحمن الكواكبي ، وفكرة الاستقلال العربي عن الدولة العثمانية ومثلها نجيب عازوري، وفكرة إقامة نظام مملكة ثنائية عربية تركية مثلتها الجمعية القحطانية ، وتعبيرا عن هذه الأفكار، ظهرت جمعيات عدة ذات نزعة قومية عربية في مختلف بقاع الدولة العثمانية.

ومن أهم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي[1]:

الجمعية السورية في بيروت أسسها سليم البستاني ومنيف خوري سنة .

الجمعية العربية السرية : ظهرت سنة م ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا .

---

[1] يشير د. محمد عابد الجابري ، إلى إن توظيف كلمة القومية بدلا من كلمة الأمة ، هو مثار لبس كبير ، ...فاستعمال لفظة القومية يفيد النسبة إلى قوم ، وهي كلمة فقيرة الدلالة. للمزيد ينظر ، د. محمد عابد الجابري ، المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، ط ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، . .

[2] للمزيد عن أطروحا تشكيل خلافة إسلامية مركزها الجزيرة العربية بدلا من اسطنبول ، ينظر ، د. عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون _ ، دمشق _ _ _ .

[3] . احمد إسماعيل راشد ، دراسات في قضايا قومية ، عمان ، _ . - . .

[4] للمزيد من التفاصيل ، ينظر :- احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق:بلا ناشر، .وكذلك ينظر ، د. محمد عمارة ، العروبة في العصر الحديث ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ، وما بعدها .

جمعية حقوق الملة العربية ظهرت سنة م، وتهدف لوحدة المسلمين والمسيحيين .

جمعية رابطة الوطن العربي أسسها نجيب عازوري سنة م بباريس

جمعية الوطن العربي : أسسها خير الله سنة م بباريس ،

الجمعية القحطانية ظهرت سنة م من مؤسسيها خليل حمادة المصري .

جمعية (العربية القناة) : أسسها في باريس طلاب منهم محمد البعلبكي سنة (((.

الكتلة النيابية العربية : ظهرت سنة) : : .

حزب اللامركزية : سنة) : : .

الجمعيات الإصلاحية : : خر) : م وقد قامت في بيروت ودمشق وحلب وبغداد والبصرة والموصل و تتكون من خليط من أعيان المسلمين والمسيحيين .

المؤتمر العربي في باري : أسسه بعض الطلاب العرب سنة) : : .

جمعية العهد :) : وهي جمعية سرية أنشئها عدد من الضباط العرب في الجيش العثماني .

جمعية العلم الأخضر سنة) : م ، من مؤسسيها الدكتور فائق شاكر .

جمعية العلم ، وقد ظهرت سنة) : م ، في الموصل .

يمكن اعتبار المرحلة السابقة مرحلة الإنشاء والجذور أو ما يمكن تسميته بالمشروع النهضوي ، غير أن هناك متغيرات عدة ساعدت على تطويره وعززت من وجوده ، فقد شكلت الحرب العالمية الأولى في العام) : ، المتغير الأساس على المستوى الدولي، إذ تركت الحرب أثارها على الدولة العثمانية التي أخذت بالتفكك والخواء . وشهدت فترة الحرب أمران كان لها الأثر الكبير في دعم إبراز المشروع القومي العربي النهضوي هذا، وهي :

قيام الشريف حسين حاكم الحجاز بإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية في العام) : ، والتي عبر الشريف حسين عنها بقوله (إننا لم نقصد بنهضتنا غير خدمة الإسلام بالعرب)[1].

يمكن اعتبار هذه الثورة البداية الأولية للدولة العربية في العهد الحديث، حيث تضمنت الاتفاقية بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون أن يعلن الشريف الثورة ضد الأتراك قي مقابل تعهد الانكليز بدعم قيام دولة تضم المشرق العربي بقيادة الشريف ، وكان للبعد العروبي في هذه الدعوة الأثر الكبير في استقطاب رجالات الجمعيات العربية في الانخراط فيها خصوصا رجالات "جمعية العهد" التي كان بينهم كثير من الضباط العراقيين في الجيش العثماني وكان الأمير فيصل على علاقة جيدة بهم[2].

إعلان الرئيس الأمريكي ودرو ولسن لنقاطه الأربعة عشر ومنها النقطة الثانية عشرة التي تنص على حق الشعوب في تقرير المصير.

تلك المتغيرات عززت من احتمالية تحقيق دولة عربية في أذهان القوميين العرب ، وهنا يمكن القول إن البيئة الخارجية والصراع الدولي ومن قبلهم سياسات الاتحادين قد أعطت دفعات قوية لنمو المشروع القومي العربي الذي كان يفتقد قبلها للحواضن والبيئة الداخلية التي كانت النسبة الكبرى موزعة بين الثقافة العشائرية والثقافة الدينية المحافظة .

ثالثا : ظهور المشروع القومي في العراق

ميز الركود السياسي والاجتماعي والفكري والاقتصادي العراق، أو ولاياته الثلاث (بغداد والموصل والبصرة) خلال العهد العثماني ، وحتى فترة الانتعاش الفكري التي مرت على مصر وسوريا في القرن التاسع عشر بفعل البعثات التبشيرية، والاحتكاك بالأفكار الأوربية والبعثات الدراسية ، كان العراق بعيدا عن التأثر بها فمثلا لم يكن يصدر في العراق

---

[1] (برنامج تتبع مسار الثورة العربية الكبرى ، إصدار جامعة مؤتة ، الأردن ، (.

[2] للمزيد عن الثورة العربية الكبرى ومقدماتها ومراسلات " حسين مكماهون " ودور جمعية العهد التي كان الأمير فيصل احد أعضائها ، ينظر ، د. محمد عمارة ، المصدر السابق، ص . وما بعدها .

[3] . وميض عمر نظمي،الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، ط : . .

إلا ثلاث جرائد هي : الزوراء في بغداد ( ) والموصل( ) والبصرة ( ) وهي صحف رسمية ، ولذلك لم يكن العراق مجالا حيويا لنمو الأفكار القومية ، إلا إن قيام الانقلاب الدستوري في تركيا على يد جماعة الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة سابقا)، في العام ، كان متغيرا أساسيا في تحريك الأوضاع بالعراق على مستويين متتابعين :

الأول زيادة مجالات الحرية الممنوحة للرأي والأفكار بفعل تقيد استبدادية السلطان عبد الحميد التي لاقت استحسانا من قبل قطاعات الطبقة الوسطى (الأفندية)، والأثر المباشر لهذا المتغير تمثل في زيادة عدد الجرائد المطبوعة في العراق إلى ( ) جريدة، كان يتم فيها طرح مختلف الأفكار، السياسية، والدينية ،والقومية، مما كان لا يمكن التطرق لها سابقا، أو تعد من الخطوط الحمراء .

أما المستوى الثاني الذي شكلته سياسة الاتحادين فهو بروز النزعة القومية الطورانية التتريكية[8] لديها مما حفز قيام وعي قومي مضاد تمثل في نمو الأفكار القومية في العراق .

أفرزت سياسة الاتحاديين الشوفينية تداعيات عدة على وضع الرابطة الإسلامية في الدولة العثمانية، وحركت دعوات الاستقلال والقومية عند مختلف العرقيات أو القوميات التابعة للدولة العثمانية.

تمثل الشكل الأولي للحركة القومية في العراق في تنظيمان هما :(النادي الوطني) في بغداد، و(الجمعية الإصلاحية) في البصرة ، وكانا متأثران بفكر وسياسات حزب اللامركزية العثمانية الذي تأسس في مصر عام ، وقد دعا هذا الحزب في العام إلى عقد مؤتمر عربي في باريس ومثل العراق فيه توفيق السويدي وسليمان عنبر وتسلم المؤتمر برقية تأييد من قبل طالب النقيب وعددا من المثقفين البغداديين[9] .

ولم تطرح هذه الجمعيات موضوع الاستقلال ، بل كان جل ما طالبت فيه هو مساواة. العرب مع الأتراك والحكم اللامركزي ، غير إن هذا التوجه لم ينطبق على (جمعية العهد) التي أسسها الضابط في الجيش العثماني عزيز علي المصري في العام وكان جل أعضائها من الضباط العراقيين في الجيش العثماني ، إذ طرحت هذه الجمعية السرية تصورات عن الدولة الفدرالية التي يؤلف العرب فيها دولتهم الخاصة ذات الحكم الذاتي ، وقد تضمن البرنامج السياسي ("جمعية العهد" النقاط التالية[10] :

- إن هدف الجمعية هو الاستقلال الذاتي للبلاد العربية واتحادها مع الأستانة على أسس مماثلة لتلك القائمة بين النمسا والمجر .
- ضرورة المحافظة على الخلافة الإسلامية بيد العثمانيين .

الملاحظة الأساسية التي يمكن الانتباه لها في برنامج جمعية العهد ، هو التطور الكبير في الرؤية القومية، من خلال طرح الفدرالية الذي تجاوز مطلب مساواة العرب بالترك، وطلب اللامركزية في الحكم ، وهو ما يعبر عن رؤية سياسية لشكل الدولة ،ونضوج سريع للمشروع القومي، خصوصا وان الجمعية في وقت لاحق في الحرب العالمية الأولى قد طرحت على الانكليز في مقابل التعاون معهم والخروج على الدولة العثمانية ، قيام دولة عربية تشمل العراق وسوريا والجزيرة العربية بقيادة الشريف حسين ، والإشارة الأخيرة تؤكد التطور الكبير في التعاطي مع فكرة المشروع القومي الذي تجاوز المطلب الثاني من برنامجهم المتمثل بالمحافظة على الخلافة الإسلامية بيد العثمانيين فهذا المطلب قد انتهى واستعيض عنه بعد ذلك بان يكون الشريف حسين خليفة للدولة العربية.

---

[8] للمزيد عن نشوء الصحافة ينظر :- عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية، بغداد:مطبعة الزهراء، .

[9] للمزيد عن أوضاع العراق في فترة حكم الاتحاديين ، ينظر :- طالب مشتاق ، أوراق ايامي - ، الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة، . وللتفريق بين النزعة الطورانية التتريكية الشوفينية التي تبناها الاتحاديين والنزعة العثمانية الإسلامية الجامعة ينظر ، د. احمد إسماعيل راشد ، دراسات في قضايا قومية ، عمان ، . .

[10] ينظر :- وجيه كوثراني ، المؤتمر العربي الأول:وثائقه ، بيروت: دار الحداثة ، .

[11] . وميض عمر نظمي، المصدر السابق، ص .

شكلت ثورة العشرين حدثا عراقيا كبيرا استنفر مختلف القطاعات العشائرية والدينية والقومية [12]، وإذا كان الفعل العسكري في هذه الثورة قد سجل للعشائر وفي مناطقها في معظم الأحيان فان النشاط ألمطلبي، والدعائي ،والتحريضي، كان على الدوام من صنع رجال الدين والقوميين المتنورين في المدن ، ولكن دون مبالغة في دورهم الذي كان يوازي حجمهم الصغير ، غير إن تناميه كان مؤثرا باعتبار إن القوميين من المثقفين القادرين على صياغة المطالب بشكل جذاب ومؤثر في بيئة عشائرية غير متعلمة ، مكنهم من أن يعطوا وجها قوميا تحرريا للثورة ، وان يؤسسوا من خلال ذلك، لمطلب الاستقلال بشكل جلي ومنظم وذا بنية فكرية وتنظيمية تصاعد بوتائر متنامية في العقود اللاحقة التي شهدت بروز حركات سياسية تنادي وتعمل من اجل تنفيذ برامجها وسياقاتها الفكرية، ففي عقد الثلاثينيات من القرن العشرين تأسس (نادي المثنى) ذا التوجه العروبي الذي اخذ في التصاعد والانتشار واثر بشكل علني على توجهات الملك غازي وعلى سلوكه السياسي ، واخذ هذا التصاعد شكله في المؤسسة العسكرية التي عرفت العديد من الضباط العروبيين الذين كان لهم اثر كبير في التاريخ العراقي مثل العقداء الأربعة الذين حاولوا استثمار ظرف الحرب العالمية الثانية وكانت اتصالات رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء العراقي آنذاك والعقداء الأربعة بالألمان تكتيكيا يصب في مصلحة المشروع القومي العربي في العراق ، فالألمان يقدمون أنموذجا قوميا للحركات القومية من خلال مثال بسمارك وتوحيده ألمانيا ، والألمان في أنموذج هتلر يمثلون عداء لليهود الذين كسبت عصاباتهم مواطئ أقدام في فلسطين بعد وعد بلفور الانكليزي في العام وبمساندتهم ، والطرفان يشتركان في المواجهة والعداء للبريطانيين ، لذا فان قادة حركة مايس كانوا يهدفون بسلوكهم السياسي إلى تغير نهج السياسة العراقية والخروج بها من فلك السياسة البريطانية ،والتوجه بها إلى مسارات قومية عربية .

إن تصاعد تأثير المشروع القومي في العراق والعالم العربي في فترة الحرب العالمية الثانية، كانت بريطانيا قد رصدته بشكل جلي ،وهو ما دفعها إلى محاولة احتواء و مغازلة المشاعر العروبية بشكل يضمن عدم تمرد العرب عليهم التي شكلت حركة مايس في العراق أهم تجلياتها، ذلك الظهور في المشروع القومي العربي دفع وزير خارجية بريطانيا أنتوني أيدن ، إلى طرح مشروع خلق كيان أو منظمة تجمع العرب بشكل يمنح الأمل للمشاعر القومية دون أن يكون لها القدرة على فعل التوحيد وربما تكريس التجزئة ، وما نقصده هنا مشروع جامعة الدول العربية .

رابعا:المشروع القومي في العراق والتفاعل مع المحيط العربي

تعد فترة الخمسينيات من القرن العشرين فترة نضوج للمشروع القومي في العراق ، ففي بداياته بدأت تتشكل خلايا حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تأسس رسميا بسوريا في العام ، ولا يمكن إغفال تأثير مشروع تقسيم فلسطين بقرار من الهيئة العامة للأمم المتحدة في العام ، وهزيمة العرب في حربهم ضد الكيان الصهيوني المصطنع في العام وتأثير الثورة المصرية في العام ،خصوصا بعد بروز توجهها العروبي في العام ، مع نشوء أزمة تأميم قناة السويس، ودور التيار القومي العربي في العراق وتنظيماته في تأييد مصر في التأميم، وإدانة العدوان الثلاثي عليها، والانتفاض ضد الحكومة العراقية على اعتبار إنها مؤيدة للعدوان بشكل غير معلن، وهنا لابد من تسجيل متغير مهم طرأ على المشروع القومي العربي الذي انتقلت قيادته ومركزه إلى القاهرة التي ستصبح محور الاستقطاب القومي حتى عقد السبعينيات .

يمكن اعتبار مشاركة حزب البعث العربي الاشتراكي في جبهة الاتحاد الوطني في العام والتي كان لها دور مهم في تأييد الانقلاب على الحكم الملكي في العام ، من المؤشرات التي تدل على زيادة دوره في الحياة السياسية العراقية وهذا الدور مستند أساسا للفكر القومي العربي الذي يدعو له ، وقد تسلم أمين عام حزب البعث العربي الاشتراكي، فؤاد ألركابي إحدى الوزارات في حكومة عبد الكريم قاسم . غير إن المعلم الأبرز في تطور المشروع القومي العربي في

---

[12] **للمزيد عن ثورة العشرين ودوافعها العشائرية ينظر :- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي،بغداد:بلا ناشر:،بلا تاريخ،ص وما بعدها .**

[13] **للمزيد عن جامعة الدول العربية ينظر ، محمد عزيز شكري ، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع ، دار ذات السلاسل ، الكويت ، . وكذلك ، محمد طلعت الغنيمي ، جامعة الدول العربية ، منشاة المعارف ، الإسكندرية ، .**

[14] **للمزيد من التفاصيل حول جبهة الاتحاد الوطني ينظر: عزيز الشيخ، جبهة الاتحاد الوطني والمهام التاريخية الملقاة على عاتقها في الظرف الراهن، مكتبة النور، بغداد ، : .**

العراق كان قد تمثل في الصراع بين التيار القطري الذي مثله رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم ، وبين التيار العروبي الذي مثله نائب رئيس الوزراء عبد السلام عارف . فمنذ الأيام الأولى لنجاح الضباط الأحرار في إسقاط النظام الملكي ورجالات حكمه وقيام الجمهورية العراقية التي تحول فيها الضباط إلى ساسة حاكمين على الطريقة السورية والمصرية(علما إن ضباط العراق قد سبقوا السوريين والمصريين في محاولتين للاستيلاء على الحكم هما محاولة بكر صدقي ومحاولة العقداء الأربعة)، برزت دعوات الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، وزار عبد السلام عارف القاهرة والتقى بجمال عبد الناصر ، وكان عارف لا يبارح ذكر عبد الناصر في خطاباته الارتجالية ، ولا يخفى إن عبد الناصر كان الوجه البارز للمشروع القومي العربي آنذاك ، وكانت مصر اللاء) الأساس في دعم القوميين في العالم العربي ، وكانت توجهات عبد السلام عارف القومية التي يدعمها حزب البعث الذي تأجج الصراع بينه وبين الحزب الشيوعي الذي فضل دعم عبد الكريم قاسم الذي لا يتوافق مع فكرة الوحدة العربية، وتسليم العراق إلى مصر وجمال عبد الناصر كما فعلت سوريا وقادتها. وقد تولد عن هذا الوضع صراع بين "قائدي الثورة" انتهت بانتصار عبد الكريم قاسم وتنحية عبد السلام عارف عن مسؤولياته السياسية ومن ثم إيداعه السجن بعد ثلاثة أشهر من الانقلاب .

كانت مصر تنظر إلى دعوات عبد الكريم قاسم القطرية بعين الريبة والعداء وهو ما حفز دعمها للقوميين العراقيين، ودعمت عدة محاولات للانقلاب على رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، مثل المحاولة الانقلابية التي قام بها عبد الوهاب الشواف في العام ، بالموصل، وكذلك احتضانها لقادة حزب البعث الذين فشلوا في اغتيال عبد الكريم قاسم في شارع الرشيد في العام .

إن موقف مصر تجاه القوميين العراقيين ونظرتها للعراق كدولة كان محكوما بعدة عوامل منها الأيدلوجي، ومنها الاستراتيجي، بابعادة السياسية والجغرافية والديموغرافية والاقتصادية ،وما يمكن أن يضيفه كل ذلك للمشروع القومي العربي الذي بدأت ملامح تشكله تتجسد في الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا في دولة واحدة سميت (الجمهورية العربية المتحدة) في العام ،هذه الوحدة بكل المقاييس كانت بحاجة للعراق ليدعم واقعها السياسي والاقتصادي، في مواجهة الأقطار العربية الموالية للغرب (الأردن والسعودية ولبنان)، والتي كانت تباشير ثمار الدعم الغربي لتطورها الاقتصادي تلوح في الأفق. وبالرغم من أن الدافع الاقتصادي دافع لاحق للسياسي في المشروع القومي العربي، فان الواقع الاقتصادي كان من أهم التحديات التي واجهت جنين المشروع القومي الجديد ونعني به (الجمهورية العربية المتحدة) ،إذ إن موارد الدولة لها انعكاس مباشر على انجازات النظام الحاكم. ولما كانت الأنظمة الانقلابية ضمن المشروع القومي مطالبة من شعوبها ومن باقي العرب بتقديم الانجازات الاقتصادية التي ترفع المستوى المعيشي للمواطن لكي تكون محقة باتهاماتها للأنظمة السابقة بالعمالة وسرقة المال العام وامتصاص دم الشعب ، فان الموضوع الاقتصادي بدأ يشكل عبئاً واضحا على المشروع القومي برمته، وينزع عنه البريق السياسي الذي يجتذب إليه المواطن العربي . وقد كان لهذا العامل دور مهم في تبرير انفصاليي سوريا لانقلابهم على الوحدة .

إن الأنظمة ذات التوجه العروبي في مصر وسوريا اعتمدت على تسقيط وإزاحة الأنظمة السابقة واتهامها بالعمالة والفساد والعمل لحساب النخبة دون الجماهير، وبالتالي فقد وجدت هذه الأنظمة الجديدة مطالبة من الجماهير بان تحقق لها الوعود التي قطعتها على نفسها. وبما إن عملية نقل الوعد من الشعار إلى الواقع العملي والحيز الملموس يتطلب موارد فعلية تستثمر لصالح الجماهير، فان هذه الحقيقة قد وضعت تلك الأنظمة في أزمة حادة ، تلك الأزمة الناشئة من سعة الشعار وتضخيم الحلم المسوق للجماهير. وقد تكون هذه الأزمة قد دفعت جمال عبد الناصر مع كل المخاطر المتوقعة من ردود الفعل الغربية إلى عملية تأميم قناة السويس واستعجال زمن نقل ملكيتها إلى مصر عام . وغالبا ما يمكن القول إن

---

[15] للمزيد حول الصراع في عهد عبد الكريم قاسم ينظر : . ياسين سعد محمد البكري ، بنية المجتمع العراقي ، دراسة تاريخية اجتماعية سياسية لظاهرة التنوع العهد الجمهوري الأول – أنموذجا ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، الجامعة المستنصرية ، . وما بعدها .

[16] ينظر :– مذكرات عبد السلام عارف، تحقيق:علي منير، بغداد:المؤسسة القومية للنشر، .

هذا الواقع الاقتصادي للدول التي يعمل فيها المشروع على ارض الواقع ، قد يكون دافعا لزيادة أهمية العراق في المشروع ومساراته العملية، لإمكانيات العراق النفطية الواسعة التي يمكن بها معادلة النظام السعودي ودوره المضاد للمشروع القومي.

هذا في الجانب الاقتصادي، أما على الجانب السياسي والأمني في توازنات الصراع الإقليمية، فان العراق يمثل عمقا .ستراتيجيا وتعبويا لدول الطوق العربي (الدول العربية المحيطة بإسرائيل) في الصراع العربي الإسرائيلي ، وبالتأكيد لن يغيب عن ذهن قادة المشروع القومي ما كان يمثله العراق الرسمي في العهد الملكي من نقطة ارتكاز للتغلغل الغربي في منطقة الشرق الأوسط وزجها في الصراع الدولي بين الكتلة الاشتراكية والرأسمالية لصالح الأخيرة، فيما عرف بالحرب الباردة ، فالعراق كان احد محاور سياسة الانطقة ضد المنظومة الاشتراكية من خلال حلف بغداد . وربما كان حلف بغداد احد دوافع جمال عبد الناصر في التحرك باتجاه التعاون لإنشاء منظمة دول عدم الانحياز في العام [17] . ولن يغيب أيضا عن ذهن عبد الناصر إن الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن في العام ، كان موجها ضد الاتحاد بين مصر وسوريا ، وضد المشروع القومي العربي . تلك الهواجس النابعة من عقل القائد الأيدلوجي الحالم تارة ، ومن عقل رجل الدولة المحكوم بالواقع والإمكانيات المادية تارة أخرى، ربما دفعت باتجاه ازدياد أهمية العراق لدى عبد الناصر وقادة المشروع القومي في نهاية الخمسينات، ودفعتهم لمعادات النظام الملكي ثم عبد الكريم قاسم ،والى دعم القوميين العراقيين وعلى رأسهم حزب البعث وحركة القوميين العرب .

إن الأهمية الجيوستراتيجية والاقتصادية والديموغرافية للعراق لن تغيب ،ولا يمكن أن تغيب عن أي ذهن عروبي يسعى لإقامة المشروع القومي العربي ، والسؤال المهم الذي يبرز هو لماذا لم يتحقق ذلك المشروع حتى في الفترات التي كان فيه ممثلي الفكر القومي يمسكون فيه بزمام الحكم في ذات الفترة في بعض الدول العربية مثل مصر وسوريا والعراق ؟ ربما الجواب عن ذلك السؤال يحتاج إلى بحث منفصل، وتقصي أخر قد لا يخرج بالنهاية عن مضامين الشخصية التسلطية الأحادية لكل حاكم من حكام تلك الدول. فالمشروع القومي إذا أريد له أن يتحقق على ارض الواقع لابد له من تضحية من رأس السلطة ، تضحية في الذات السلطوية التي تمكن من كل الرغبات الممكنة، فالسلطة هي التي تحقق الذات بأعلى صورها.

ونعود لتجليات المشروع القومي في العراق عقد الخمسينيات ، حيث مثلت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في العام ، من قبل حزب البعث إحدى لحظات الفوران القومي في العراق من اجل مشروعه في إقامة دولة موحدة بالضد من توجهات قاسم القطرية، المبررة لرفضها المشروع القومي العربي ، بالتنوع القومي والديني والطائفي للمجتمع العراقي ، وبالتوازي مع دعوات القوميين العرب في إنشاء الدولة الواحدة القائمة على أساس العرق واللغة والتاريخ كمقومات أساسية جامعة لتكوين دولة .

وكانت وجهة نظر القطريين إن التصور القومي العروبي كان مغالطة للواقع العراقي، إذ أنهم يرون في العراق دولة ذات خصوصية لا تتطابق مع دعوات المشتركات الثابتة للقوميين العرب ، فعلى الرغم من الطابع السائد للثقافة العربية الإسلامية في العراق فان هناك تنوعات قد لا تتطابق مع هذه التصورات ، فهناك تنوع عرقي لا يقف عند حدود العرقية العربية، بل يتعداه إلى العرقية الكردية، والتركمانية، والأشورية ، ولن يكون الحديث عن أكثرية وأقلية إلا محاولة لقمع الأخر ومصادرة وجوده وحقه في الخصوصية. من جانب أخر فان الحديث عن ثقافة عربية إسلامية سائدة يصطدم بتنوع مذهبي شيعي سني بشكل أساس، وتنوع ديني إسلامي مسيحي صابئي ايزيدي [18] . ليس ذلك فقط بل يمكن عد محاولة انقلاب الشواف بالموصل في العام ، ودعم حكومة الوحدة لها، إحدى تلك اللحظات التي عبرت عن تجليات المشروع القومي ، خصوصا مع موقف الكرد الرافض لها والمشارك في قمعها .

---

[17] للمزيد عن حلف بغداد ، ورد الفعل المصري بعقد اتفاقيات ثنائية مع كل من سوريا في / / ، ومع السعودية في / / ، وكذلك عن منظمة دول عدم الانحياز ، ينظر ، د. محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسية العالمية ،سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ، تموز . .

[18] للمزيد عن التنوع الاجتماعي العراقي ينظر :- سليم مطر، جدل الهوية ، بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، .وكذلك ينظر ، رشيد الخيون ، الأديان والمذاهب بالعراق، منشورات الجمل ، ألمانيا ، .

إن الدعوة للوحدة الاندماجية مع الجمهورية العربية المتحدة كانت من أهم عوامل الصراع بين القوميين العرب بمختلف تسمياتهم، وبين عبد الكريم قاسم والشيوعيين العراقيين ، وقد يكون لعملية إطلاق سراح عبد السلام عارف من سجنه بعد عملية الانفصال بين مصر وسوريا دلالتها في هذا المضمار .

شكل انقلاب شباط في العراق لحظة مهمة في تاريخ المشروع القومي العربي ، فالأول مرة تصبح السلطة في العراق بأيدي القوميين دون شريك، وهو ما عزز من أمال القوميين العرب في حلم استعادة وترميم الوحدة التي انفضت بين مصر وسوريا، ولكن هذه المرة سيكون لها ركن ثالث هو العراق، مما يعزز في رأي القوميين العراقيين من قوة هذه الوحدة . وبالفعل فقد بدأت مباحثات الوحدة الثلاثية ، ولكن تجربة عبد الناصر في الحكم كانت قد روضت جموح الثوري الحالم في شخصيته، واستعاضت عنه بالسياسي رجل الدولة، وبالتالي لم يكن بكل المقاييس متحمسا لتكرار تجربة الوحدة على عجالة ،خصوصا وهو يعرف إن العراق خرج من حكم قاسم وهو في صراع مباشر مع المصالح الغربية بسبب القانون رقم ( )(الذي حدد من قدرة شركات النفط العالمية في التوسع للتنقيب عن النفط، وما مثله ذلك من تهديد للمصالح الغربية . كما إن مطالبة قاسم بضم الكويت ما زالت حية في الذاكرة حينها، وهو ما يمكن أن يضع العراق، وبالتالي الاتحاد في مواجهة مباشرة مع الغرب والولايات المتحدة، وعبد الناصر اعلم من غيره بتبعات هكذا مواجهة،بسبب التداعيات التي خلفها العدوان الثلاثي على مصر في العام .هذا على المستوى الدولي بالنسبة للعراق .

أما على المستوى الداخلي فان العراق كان يمر بمرحلة صراعات وانشقاقات داخلية عززت من حالة عدم الاستقرار فيه . في تلك المرحلة برزت عدة أجنحة للقوميين العروبين شتتت جهودهم وأضعفت من قوتهم وقدرتهم على استقطاب الشارع إلى صفوفهم ، فحزب البعث كان قد عرف عدة انشقاقات ، وكان شعبيته قد ضعفت بسبب تجربته الدامية في الحكم (قبل انقلاب الرئيس عبد السلام عارف عليهم في تشرين)، وارتكابه العديد من الخروقات واستخدمه العنف بمستوى متصاعد ،وهو ما يحسب على الاتجاه القومي كله، إذ لم يستطع القوميين العرب والناصرين إقناع الشعب العراقي بتمييزهم عن البعثيين. كما إن لتصاعد حدة التمرد الكردي في شمال العراق قد زاد من حالة الانقسام الداخلي واستنزف الكثير من قوة وموارد الدولة العراقية .

ربما لهذه العوامل تراجع دور العراق في المشروع القومي العربي على الصعيد العملي في مرحلة الستينيات ، بعبارة أخرى إن قيادة المشروع القومي العربي في تلك المرحلة الممثل بمصر كان ينظر للعراق بوصفه معززا لحالة عدم الاستقرار أكثر منه مضيفا لقوة المشروع الذي عرف انتكاسة الانفصال في العام .

خامسا : المشروع القومي بعد حرب حزيران / رؤية تحليلية

شكلت هزيمة حزيران جرحا وخسارة وضعت المشروع القومي العربي أمام العديد من التساؤلات في مدى إمكانية هذا المشروع، وليس فقط الحكام ،على تحقيق شيء ملموس للجماهير العربية ، وعلى قدرته في التواصل والاستمرار ، تلك التساؤلات جاءت نتيجة إن دول الطوق الرئيسة مصر وسوريا المواجهة لإسرائيل كانت تمثل واقع هذا المشروع على الأرض . ولم تستطع كل أساليب الإقناع نزع فكرة الهزيمة من الذهن الجماهيري الجمعي، هزيمة أنظمتها الثورية أمام إسرائيل والغرب. ولم تجد عمليات النقد الذاتي والاعتراف بالمسؤولية وتحمل تبعاتها كثيرا، ولا استخدام مصطلحات مخففة للصدمة كاستبدال مصطلح الهزيمة بمصطلح خفيف الوطئة هو النكسة ، كل تلك الأساليب لم تعفي قادة المشروع القومي ، ولم تعف المشروع القومي برمته من إعادة النظر من قبل قطاعات النخب الثقافية والسياسية المتنورة ،ومن النقد الشديد، ومن خيبة الأمل والإحباط وتزعزع الثقة لدى الجماهير بالمشروع ورجالاته .

في العراق، كانت الهزيمة، قد اعتمدت كإحدى مبررات الانقلاب في تموز ، إذ حاول حزب البعث العربي الاشتراكي تسويق انقلابه وكأنه رد فعل لهزيمة حزيران ، مثلما كانت عملية ضياع فلسطين المبرر الأكبر للانقلابات العسكرية وعمليات ما يسمى بالتصحيح في العالم العربي فضلا عن مبررات أخرى داخلية.

---

[19] **للمزيد عن الثورة الإيرانية ينظر :- محمد حسنين هيكل ، مدافع أية الله ،القاهرة:دار الشروق ، ط :** .

ويمكن تسجيل ملاحظة مهمة على المشروع القومي في تلك المرحلة، إلا وهي انه قد استنفذ الكثير من طاقته في الصراع العربي الإسرائيلي ، وبقدر ما كان هذا الصراع والقضية الفلسطينية عنصر تعبئة نفسية ووجدانية للجماهير استطاعت من خلالها الأنظمة القومية أن تخفي عجزها وتؤجل الكثير من الوعود إلا انه في عين الوقت، ومع طول فترة الصراع دون تحقيق انجاز حقيقي كانت مدخلا لتشكيل وعي جماهيري، إذا لم نستطع أن نطلق عليه وعيا رافضا لسلوكيات قادة المشروع وللمشروع نفسه فيمكن أن نطلق عليه وعيا نقديا حاول اكتشاف الواقع ،أو نقدا تحريفيا حاول تزيف الواقع وزج الجماهير في تفسيرات غيبية، ذلك النقد واجهته الأنظمة القومية بقمع واعتقالات وتسوير لها بالأجهزة الأمنية والمخابراتية.

إن الاحباطات السياسية، وسياسات القمع البوليسي الذي واجهت فيه الأنظمة العروبية الثورية كل الأصوات المعارضة، بالإضافة إلى فشل مشاريع التنمية ،وزيادة معدلات البطالة والفقر ،كان قد فتح الباب واسعا لنمو التيارات الإسلامية المتشددة وتفوقها على المشروع القومي ،الذي اخذ بالتراجع أمامها، وأمام المتغيرات العالمية المستجدة التي غلبت الاتجاهات الدكتاتورية النخبوية التي كانت تحكم في الستينات باسم المشروع للتحول في السبعينات والثمانينات إلى نسيان المشروع، أو معاداته لصالح مصالحها الخاصة في الحكم ،والفساد الإداري، والارتباط بالغرب وسوقه الرأسمالي .

وفي عقد السبعينيات شهد المشروع القومي أهم تحدي كان قد وضع حدا لرؤيته التمددية باتجاه الأقطار العربية ، وتمثل هذا التحدي في استكمال الدولة القطرية في العالم العربي لمراحلها التطورية التاريخية، وأصبحت تلك الدولة حقيقة اكبر من أن يتخلى عنها الحكام أو مواطنو تلك الدول، وإذا كان تأسيس جامعة الدول العربية في العام ،مرحلة الإعلان عن الدولة القطرية، ولو بمضامين قومية موارية ومظللة ، فان إعلان بريطانيا في العام ، نيتها الانسحاب من مشيخات الخليج العربي بحلول العام ،وإعلان استقلال تلك الدول في ذلك العام باعتراف دولي، تعد مرحلة الاستكمال التاريخي لتطور الدولة القطرية في العالم العربي ، وبالتالي لم يعد المشروع القومي حتى في الدول التي تحكمها نخب تحمل تنتمي إلى الفكر القومي أو تدعي الانتماء إليه والى مشروعه مثل(مصر ، سوريا ، العراق) أكثر من شعار يبرر وجود الأنظمة.

تلك الظروف الموضوعية التي واجهت المشروع القومي العربي، لم يكن من الممكن لاستيلاء حزب البعث العربي الاشتراكي على السلطة في العراق في العام ، وطردهم لنظام كان حكامه من العسكر القوميين، أن يمد هذا المشروع بدفعة حياة جديدة ، إن لم يكن الصراع بين جناحي حزب البعث العراقي والسوري، قد أضاف حالة تردي وانتكاس للمشروع القومي مع تصاعد حالة التنافس السلطوي الفردي على حساب المبادئ القومية الجمعية المعلنة ، فضلا عن الصراع السلطوي داخل قيادة البعث في العراق والصراعات الداخلية المتعددة مع الأحزاب القومية الأخرى، ومع الشيوعيين، والتمرد الكردي في شمال العراق بقيادة الملا مصطفى البرزاني ،الذي لم يحد من تداعياته السلبية إعلان آذار للحكم الذاتي ، بسبب الشكوك المتبادلة، فكان المخرج في اتفاقية الجزائر التي أعطت لإيران حقوقا في شط العرب في مقابل امتناع إيران عن دعم التمرد الكردي ، وهي إحدى مفارقات حكم البعث في العراق أي التنازل عن أراض وحدود سيادية عراقية لدولة أخرى، مقابل وقف دعمها للمتمردين العراقيين .

ربما تكون الإضاءة الوحيدة للمشروع القومي العربي في عقد السبعينيات على مستوى الموقف المعلن، والموقف الجماهيري، هي في حرب تشرين ، فكان للجيش العراقي وموقف الحكومة العراقية دور في منع سقوط دمشق بأيدي إسرائيل ، كما كان لاستخدام النفط من قبل الدول العربية المصدرة للنفط كوسيلة ضغط على الدول الداعمة لإسرائيل دور في تعويق ذلك الدعم ، غير إن تداعيات تلك الحرب ابتدء من انعكاسات ثغرة الدفرسوار، ومرورا بقبول وقف إطلاق النار، ووصولا إلى زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى إسرائيل في العام ، وتوقيع اتفاقية السلام في كامب ديفيد، وتعليق عضوية مصر في الجامعة العربية بفعل مقررات مؤتمر قمة بغداد في العام ،ونقل مقر الجامعة إلى تونس، وبالتالي وضع مصر خارج إطار العمل العربي وهي أهم أعمدة المشروع القومي، كل ذلك كان قد وضع المشروع القومي العربي في أزمة أضعفت من مصداقيته ،هذا من جانب ، ومن جانب أخر نقل قيادة المشروع القومي العربي من مصر إلى العراق وسوريا المتصارعين فيما بينهما، به وبدونه .

إن التداعيات التي برزت على المشهد الإقليمي ببروز الجمهورية الإسلامية في إيران بعد إسقاط الشاه، وتولي الخميني السلطة العليا في إيران في العام "واندلاع الحرب العراقية الإيرانية في العام ،كانت تحدد مكانه المشروع القومي بقيادة العراق ومكانة العراق في المشروع القومي العربي ، فبتحديد وتطويق وتراجع دور مصر في المنظومة العربية، وجامعة الدول العربية، وبموقف سوريا الداعم لإيران في حربها مع العراق ، أضحت أركان المشر القومي العربي ممثلة بمصر وسوريا والعراق، تعيش حالة انفصال وصراع ادخل المشروع القومي العربي في أزمة، لم يستطع مشروع مجلس التعاون العربي المطروح من العراق في العام ، والذي يضم العراق ومصر والأردن واليمن ،من تطويق أزمة المشروع القومي والتي ستجد تصاعدا لها في عقد التسعينات .

سادسا : المشروع القومي العربي بعد قضية الكويت ***/ رؤية تحليلية***

شكلت عملية غزو الكويت في أب ،من قبل العراق عبئا على المشروع القومي العربي المثقل بالأعباء والأزمات، وكان مفاجئة أحرجت الجماهير العربية فلم يكن متصورا إن الدولة القائدة للمشروع القومي العربي في تلك الفترة، والمطلقة لبنود الإعلان القومي في شباط ، والمتضمن في بنوده حرمة استخدام القوة في حل النزاعات العربية العربية، وإدانة ومواجهة من يستخدمها ، تلك الدولة القومية كانت هي رائدا لهذا الاستخدام العسكري لضم دولة عضوا في الجامعة العربية والأمم المتحدة .

افرز الغزو انقساما عربيا حادا تأكدت ملامحه في مؤتمر القمة الطارئ المنعقد في القاهرة، والذي كان المبرر للتدخل الدولي وفرض عقوبات على العراق ضمن الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة الذي يجيز استخدام القوة ضد الدولة المعاقبة في حال عدم امتثالها للقرارات الأممية .

عملية الغزو وأشكال الصراع الذي تلاها ،كانت قد أفقدت المشروع القومي العربي بصياغته التي تعود إلى الأربعينات بآخر مصداقيته له أمام الجماهير العربية ، وافقد العراق مكانته الريادية في هذا المشروع، فمن خلال فعل الغزو وردود الأفعال العربية المساندة للغزو، أو المعارضة له ،وخصوصا ،من قبل ركيزتان أساسيتان للمشروع ، ممثلة بمصر وسوريا، فهما لم يتوقفا عند حدود الإدانة وتسويغ استخدام القوة ضد العراق، بل دعيا الغرب وأمريكا، التي كان العروبيون اجمع يعتبروها العدو الأول لمشروعهم ، لضرب العراق، وشاركا عمليا في تدمير العراق بمساهمتهما الفعلية في الجهد العسكري الذي لم يتوقف عند تحرير الكويت.

غزو الكويت كان قد وضع المشروع القومي برمته لا في زاوية التساؤل ، والنقد ، والشك ، بل وضع ذلك المشروع في مفترق طرق خطير، ونكوص وتداعي وفصام، لم يكن من الممكن أن يتم تداركه حينها ، فقد وضع الدول المدعية الالتزام بالمشروع ،والمتصارعة حد التدمير فيما بينها، موضع المواجهة العسيرة أمام الجماهير العربية التي أفقدتها قضية الكويت وتفاعلاتها صوابها ،ولم تعد تفرق بين الشقيق والصديق والعدو، وثار استغرابها للارتداد والسماح والقبول بالمبررات السياسية، والضغوط الدولية، ومفعول نظرية المؤامرة الذي قد يكفر عن الكثير من الخطايا ويضعها على شماعة الغير والأخر المتربص بالنهضة العربية ومشروعها القادم للإنقاذ .

لحظة المواجهة الطويلة منذ الغزو بين دول المشروع القومي العربي لم تعرف التراجع بل زادت من حدتها عملية جلد الذات في تمويه لم يواجه الوقائع كما هو، بل استمر في تبرير ما كان خارج سياقات العقل والمنطق وأهواء السلطة .

قضية غزو الكويت واحتلاله من قبل النظام البعثي العراقي المؤمن بالمشروع القومي ،ومن ثم تكاتف باقي الدول العربية المدعية التزامها بالمشروع القومي العربي لتدمير قوة العراق العسكرية والاقتصادية وحتى الاجتماعية ، ومحاصرته دوليا لثلاث عشر سنة بمباركة الأنظمة العربية بمختلف توجهاتها القومية والقطرية . وأخيرا غزو الولايات المتحدة للعراق واحتلاله في ،وتدمير كل ما فيه، حيث دمر كل البناء التحتي له بشكل منظم، وتلوح بعد خمسة سنوات من الاحتلال المستمر شواهد كثيرة ومستمرة على نوايا المحتل الأمريكي لتمزيق هذا البلد وتفتيته .

إن هذا الواقع الذي وصل إليه المشروع القومي العربي يؤذن بفشل النموذج وأساليبه التي أرسيت في أربعينات القرن العشرين، مثلما فشل سابقه الذي تكون أوائل القرن ذاته، ومطالب من مفكري المشروع وأنصاره بتجديد حقيقي وجذري للمشروع ، وإلا سيكون من الصعب جدا إعادة الثقة به من الجماهير العربية وأجيالها الجديدة.

المشروع القومي العربي ، بمقوماته وحركته عبر قرن من الزمن ، وإفرازاته على صعيد الفكرة والتطبيق ، وتداعياته التي خلفها سلوك الأنظمة السياسية الممثلة للمشروع ، ودور العراق في الفكرة ومكانته في المشروع ،والسلبيات التي أنتجها على الفكرة والمشروع بعد غزو الكويت ، كل تلك الأمور بحاجة إلى وقفة ومراجعة فكرية نقدية وتصحيحية تتعامل بموضوعية وبسرد تاريخي حقيقي يتجاوز الاصطفاف العاطفي ومدلولات نظرية المؤامرة التي تتوسع حد الإطلاق في تأثيم الأخر وتطهر الأنا من كل تجاوزاتها وانحرافاتها.

دور العراق في المشروع القومي العربي ومدى أهميته وفعله في المنظومة القومية العربية ، ومدى أهمية المنظومة العربية وانفعالها به، اتضحت بشكل جلي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق في العام ، بطبيعة وشكل الانقسام والصراع الذي عرفته المنطقة العربية بالإخراج ألقسري للعراق من هذه المنظومة بالفعل الأمريكي ، والموقف العربي من الاحتلال، ومن العراق بعد الاحتلال ، والهشاشة والاختراق والضعف في إدارة الصراع الإقليمي مع إسرائيل ، وإيران ، وتركيا ، التي أخذت بالتمدد وفرض شروطها ورؤيتها على الدول العربية بفعل انهيار توازن القوى بينها بغياب العراق كلاعب مهم في هذا التوازن .

خلاصة

تجلى المشروع القومي العربي منذ بداياته في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، بصبغته الليبرالية والاستقلالية وصولا إلى صيغته الإيديولوجية الشمولية بعد الحرب العالمية الثانية ، تجلى بأطوار ثلاث : الأول ، طور البدايات بكل ما تحمله الكلمة من دلالة على إنها بحث عن الذات ، ومحاولة خلق تصور عن ماهيتها بمقاربة نماذج قومية أخرى ، حفزت أسئلة الوجود والحضارة ، واستثارت حفريات الهوية والبحث في التراث والتاريخ والدين واللغة والماضي الذهبي ، حفريات استهدفت تجذير الأصالة وخلق أواصر ربط تؤسس لمشروع قومي عربي . والثاني، طور التبشير ، وتأسيس مراكز استقطاب فكري مثلتها الشام والعراق . والثالث، طور الظهور في شكل حكومات وسلط حكمت باسم المشروع القومي ونظرت له بامتداد من الخليج إلى المحيط تركزت في القاهرة ودمشق وبغداد .

وعبر مراحل المشروع القومي العربي تلك. كان للعراق مكانة تراوحت من جهة، بين التأثير الداعم والباني لمرتكزات هذا المشروع بفعل القاعدة الجماهيرية المؤمنة بفكره وبمبرراته التاريخية والفكرية والعرقية، وفي المشاركة الفاعلة في القضايا العربية ، ابتدءا من المساهمة في الحرب ضد العصابات الصهيونية في العام ، على اثر قرار التقسيم ، أو في موقف الجماهير العراقية من العدوان على مصر في العام ، أو في انعكاسات هزيمة حرب حزيران ، على الوجدان العراقي ، أو في المساهمة في حرب تشرين ، أو في الموقف الداعم للقضية الفلسطينية .

تلك الأدوار انعكست ايجابيا على النظرة للعراق ومكانته من قبل المفكرين والسياسيين العرب المتبنيين لهذا المشروع ، لأهمية العراق السياسية والاقتصادية والجيوستراتيجية . ومن جهة أخرى ، مكانة سلبية أسسها الميل ألتدميري للمشروع ، بفعل إغراءات السلطة وشهوة الحكم وأهمية المصالح الذاتية والحزبية للنخب القومية الحاكمة ، في العراق ، والمراكز القومية العربية ، وهو ما حول المشروع إلى شعارات تفتقد إلى المنهاج العملي الواقعي للتطبيق ، وافرز حالة صراع بين أقطاب المشروع ، أدخلته في طور رابع ، هو طور الأزمة التي زاد من حدتها احتلال العراق في العام لموقف العربي من هذا الاحتلال ، فضلا عن طبيعة النخب السياسية التي تصدرت المشهد العراقي ، وهي في الأغلب ، نخب ذات توجه إسلامي أو قومي غير عربي .

دخول المشروع القومي العربي طور الأزمة، لا يعني انه مشروع فاقد في الأصل لأسس المشروعية وعوامل النمو الموضوعية غير انه يعني، إن طريقة التعاطي معه من قبل النخب الحاكمة في طور الظهور، قد افقده الكثير من جاذبيته وفعاليته ومصداقيته، وبالتالي في أسس شرعيته وتقبله من قبل الجماهير، وكان للعراق (النخبة الحاكمة) في هذا الطور، وتحديدا بعد أحداث غزو الكويت ، دور إشكالي دفع بأزمة المشروع إلى السطح بشكل سافر تجلت في بعدين، الأول تمثل في التناقض بين الشعار والسلوك السياسي للنخبة القومية الحاكمة في العراق، والثاني تمثل في المواجهة المفتوحة بين دول المشروع القومي العربي بفعل الغزو.

التنظيران الأساسيان اللذان يعالجان ويهتمان بالمشروع والفكر القومي العربي ، يقفان على طرفي نقيض ويعالجان الأزمة من فكر مؤدلج يتعصب للأمنيات أكثر مما يناقش ظاهرة سياسية اجتماعية تاريخية كان لها فعل وحضور مؤثر

على أكثر من صعيد ، وعلى امتداد جغرافي شمل مساحة العالم العربي ، الأول يؤمن بأفول المشروع والفكر القومي وعدم صلاحيته وتلاشي المردود الفكري له والتفاعل معه .

والتنظير الثاني ينطلق من إيمان صوفي ورؤية قدرية تؤكد صلاحية الفكر والمشروع القومي دون مراجعة، أو مواقف نقدية للذات، وإلقاء كل تبعات الأخطاء على العوامل الخارجية والتأمر الدولي دون تحميل إشكاليات الفكر القومي نفسه، وعدم قدرته على التعامل مع الخصوصيات القطرية، أو لإشكاليات السلوك السياسي للنخب الحاكمة، أية مسؤولية عن النتيجة التي وصلها المشروع.

إذا استثنينا إشكاليات الفكر القومي العربي في الوصول إلى حالة الأزمة، التي هي خارج اهتمام بحثنا إننا نشير إلى أن وقائع ومسيرة المشروع القومي العربي بوضعه الازموي الحالي وبتداعياته، يتحملها السلوك السياسي للنخب الحاكمة أي مراجعة للمشروع من قبل معتنقيه ،لا بد أن تتجاوز الميل العاطفي ومحاولات التبرير والمجادلات الكلامية والشعارات ، والدخول في عمق أسباب الأزمة ، في مواجهة حقيقية لمسيرة المشروع ، وهو ما تحققه وقفة نقدية علمية مع الذات تتجاوز الاستحضار التعسفي الدائم للعامل الخارجي ، كصيغة خلاصية من الأخطاء الذاتية ، دون نسيان وإغفال العامل الخارجي الذي كان له دور ، على أن يوضع هذا الدور في سياقه وحجمه الطبيعي دون تضخيم وتهويل .